(١)

أسباب التوتر الطائفى

من سنن الله ـ سبحانه وتعالى ـ فى الخلق، وفى الاجتماع الإنسانى قيام العلاقات ـ علاقات الاقتران ـ بين «النعم» وبين «الابتلاءات والامتحانات والاختبارات» . .

ففى نعمة الأولاد فتنة واختبار . . وكذلك الحال مع نعمة المال والغنى والثراء . . ومع نعمة الجاه والسلطان . . ومع نعمة العافية والقوة فى الأبدان . . ومع نعمة إقبال الدنيا وزينتها على الناس ـ أفرادًا . . وطبقات . . وشعوبًا وأممًا . . وحضارات ـ . . ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِندَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨] ـ . . ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٥] . .

وذلك ليتم الابتلاء والاختبار والامتحان للناس، ويتميز الطيب من الخبيث، والصالح من الطالح، والمجاهدون على طريق الخيرات من الذين سقطوا ويسقطون فى الابتلاءات والاختبارات . .

* ولما كانت التعددية التى جعلها الله ـ سبحانه وتعالى ـ قانونًا وسنة لا تبديل لها ولا تحويل ـ فى كل عوالم الخلق، وفى كل مكونات الاجتماع الإنسانى ـ هى من أعظم نعم الله ـ سبحانه وتعالى ـ ، لتحقيقها الحرية . . والسَّعة . . واستنفار الطاقات للتسابق فى ميادين الإبداع . . والتنوع الذى يحقق جمال التمايز فى الأفكار والأعمال وطرق التنافس فى هذه الحياة ـ كان الاقتران بين نعمة التعددية هذه وبين الابتلاء بها والاختبار فيها، ليتميز الراشدون الذين يوظفونها فى التكامل والتوازن والتزامل والبناء من الذين يجعلونها سبيلاً للتناحر والتقاتل والتشرذم والتفتيت .

* ولأن الشريعة الإسلامية، والحضارة الإسلامية التى أثمرتها وبنتها هذه الشريعة، قد وضعت سنة التعدد فى الممارسة والتطبيق[1] . . فبنت أمة متعددة فى الشرائع والديانات . . وفى الألسن واللغات والقوميات . . وفى المذاهب والفلسفات . . وفى الألوان والأجناس . . كما أقامت للإسلام داراً متعددة الأقاليم والأوطان والولايات . . وصنعت لهذه الأمة ثقافة متعددة المناهج والاتجاهات وميادين الإبداع . . كان طبيعيّا اقتران نعمة التعدد هذه بألوان من ابتلاءات التوترات بين فرقاء هذه التعددية، امتحانًا لهؤلاء الفرقاء، حتى يتبين ويمتاز الساعون إلى توظيف التعدد فى التكامل والتوازن بين الذين سقطوا ويسقطون فى مستنقعات التناحر والتنابذ والتقاتل والتصارع والتشرذم والتفتيت . .

* إذن . . فليس غريبًا أن يشهد تاريخنا أو حاضرنا توترات بين مكونات الأمة ـ الدينة . . والقومية . . والوطنية ـ . . وإنما الأهم هو البحث عن أسباب هذه التوترات . . والأخذ بطرق العلاج التى تداوى ما ينشأ عنها من آثار .

* وفى حدود ما قرأت ـ حول التوترات الدينية فى التاريخ الإسلامى، القديم منه والحديث ـ فإن ما كتبه المفكر المسيحى اللبنانى المرموق الدكتور جورج قرم ـ حول الأقليات المسيحية فى التاريخ الإسلامى ـ كان ولا يزال ـ أدق وأعمق ما كتب فى هذا الميدان . . وذلك فضلاً عن أنه «شهادة شاهد من أهلها» ـ أهل هذه الأقليات الدينية التى عاشت فى إطار أمة الإسلام . .

لقد رصد الرجل ظاهرة التوتر الدينى والطائفى ـ التى قال إنها كانت محدودة وعابرة ـ فأرجعها إلى عوامل ثلاثة . . وذلك عندما قال :

«إن فترات التوتر والاضطهاد لغير المسلمين فى الحضارة الإسلامية كانت قصيرة، وكان يحكمها ثلاثة عوامل :

العامل الأول: هو مزاج الخلفاء الشخصى، فأخطر اضطهادين تعرض لهما الذميون وقعا فى عهد المتوكل العباسى [٢٠٦ ـ ٢٤٧هـ ـ ٨٢١ ـ ٨٦١م] الخليفة الميال

(١) انظر كتابنا : [الإسلام والتعددية : التنوع والاختلاف فى إطار الوحدة] طبعة القاهرة ـ مكتبة الشروق الدولية سنة ٢٠٠٧م .

بطبعه إلى التعصب والقسوة، وفى عهد الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله [٣٧٥ ـ ٤١١هـ ٩٨٥ ـ ١٠٢١م] الذى غالى فى التصرف معهم بشدة. ـ [وكلا الحاكمين عم اضطهاد هما قطاعات كبرى من المسلمين!!] ـ . .

العامل الثانى: هو تردى الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية لسواد المسلمين، والظلم الذى يمارسه بعض الذميين المعتلين لمناصب إداريةعالية، فلا يعسر أن ندرك صلتهما المباشرة بالاضطهادات التى وقعت فى عدد من الأمصار.

أما العامل الثالث: فهو مرتبط بفترات التدخل الأجنبى فى البلاد الإسلامية، **وقيام الحكام الأجانب بإغراء واستدراج الأقليات الدينية غير المسلمة إلى التعاون معهم ضد الأغلبية المسلمة. .**

إن الحكام الأجانب ـ بمن فيهم الإنجليز ـ لم يحجموا عن استخدام الأقلية القبطية فى أغلب الأحيان ليحكموا الشعب ويستنزفوه بالضرائب ـ وهذه ظاهرة نلاحظها فى سوريا أيضًا، حيث أظهرت أبحاث «جب» و«بولياك» كيف أن هيمنة أبناء الأقليات فى المجال الاقتصادى قد أدت إلى إثارة قلاقل دينية خطيرة بين النصارى والمسلمين فى دمشق سنة ١٨٦٠م، وبين الموارنة والدروز فى جبل لبنان سنة ١٨٤٠م وسنة ١٨٦٠م.

ونهاية الحملات الصليبية قد أعقبتها، فى أماكن عديدة، أعمال ثأر وانتقام ضد الأقليات المسيحية ـ ولا سيما الأرمن ـ التى تعاونت مع الغازى. .

بل إن كثيرًا ما كان موقف أبناء الأقليات أنفسهم من الحكم الإسلامى، حتى عندما كان يعاملهم بأكبر قدر من التسامح، سببًا فى نشوب قلاقل طائفية، فعلاوة على غلو الموظفين الذميين فى الابتزاز، وفى مراعاتهم وتحيزهم إلى حد الصفاقة، أحيانًا، لأبناء دينهم، ما كان يندر أن تصدر منهم استفزازات طائفية بكل معنى الكلمة. .»[1].

تلك شهادة شاهد من أهلها على حجم. . ومدد. . وأسباب التوتر الدينى والطائفى فى تاريخنا الإسلامى.

---

(١) جورج قرم: [تعدد الأديان ونظم الحكم: دراسة سوسيولوجية وقانونية مقارنة] ص ٢١١ ـ ٢٢٤ ـ طبعة بيروت سنة ١٩٧٩م. والنقل عن: د. سعد الدين إبراهيم: [الملل والنحل والأعراق] ص ٧٢٩، ٧٣٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٠م.